

المجلد: 07 / العدد: 02 / ديسمبر (2023)، ص.ص. 161-170

أهمية الأداء التطريزي في تلقي المعنى القرآني: الوقف والتنغيم أنموذجين The Importance of Prosodic Performance in Understanding the Quranic meaning: pauses, intonation as models

عبد العزيز التزكيني
tizguini_86@hotmail.fr

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش
(المغرب)

تاريخ النشر: 2023/12/02

تاريخ القبول: 2022/03/21

تاريخ الاستلام: 2022/02/22

ملخص:

يُروم المقال الكشف عن مدى إسهام النزول الشفهي للقرآن الكريم، وتلقيه للصحة تلقينا صوتيا في الاهتمام بالأداء القرآني منذ القرون الهجرية الأولى؛ إذ اهتمدى القراء والعلماء إلى تمييز اللحن الخفي والجلي أثناء القراءة. وتوصلت أيضا إلى عناية علماء الأصوات المحدثين بالظواهر الصوتية المصاحبة للكلام والتي أطلقوا عليها مصطلحات عديدة منها الظواهر التطريزية والتنوعات الصوتية، وبينوا أثرها في توضيح المعنى من جهة، ورسم منحنيات الإيقاع الكلامي من جهة ثانية.

ومن النتائج المتوصل إليها أن إتقان القارئ للوقف والنغم والتنغيم وباقي الظواهر التطريزية يسهم في إ فهم الخطاب القرآني وتقريب معانيه إلى المتلقي. وذلك بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

- هل اهتم القدماء بالظواهر التطريزية؟

- ما الفائدة منها عند القدماء والمحدثين؟

الكلمات المفتاحية: صوتيات، ظواهر تطريزية، التنغيم.

Abstract

The aural revelation of the Qur'an and its teaching to prophet (PBUH) companions phonetically have contributed to the interest in the Qur'anic performance since the early Hijri centuries. Scholars have shown the explicit and implicit solecism. Contemporary phonologists were interested in the phonetic phenomena accompanying speech, which they termed prosodic features and phonetic variations. They examined its impact in illuminating the meaning and shaping speech tone.

The paper purports to demonstrate the role of the reciter's mastery of pauses, melody, intonation and other prosodic features in demystifying the Quranic discourse and bringing its meanings closer to the recipient. We will attempt to answer the following questions:

Did early academia study Prosodic features?

What are the benefits of prosodic features for early and contemporary researchers?

Keywords: phonetics; prosodic features; intonation.

مقدمة

انهر فصحاء العرب بلغة القرآن الكريم انهارا تاما، وأعجبوا ببلاغته المعجزة، وفصاحته المتفردة منذ بدايات نزوله وبعد فترة تدوينه، وتدارسوا بعض أسرار الصرفية والصوتية والبلاغية التركيبية منذ القرون الهجرية الأولى، وازداد اهتمام الباحثين والدارسين به في القرون الهجرية الأخيرة مستغلين ما توصل إليه العلم الحديث من أجهزة متطورة ونتائج دقيقة.

وأُسهم نُزول القرآن نزولا شفافيا، وتعليمه للصحابة تعليما صوتيا في الاهتمام بالأداء القرآني منذ بدايات نزوله، وميز العلماء القدامى للحن الخفي عن اللحن الجلي. ومع تقدم العلم وتطور وسائل البحث أدرك علماء الأصوات المحدثين إسهام ظواهر صوتية مثل النبر والتنغيم والوقف في توضيح المعنى، وفي إعناء الإيقاع. ويهدف مقال "أهمية الأداء التطريزي في تلقي المعنى القرآني" إلى بيان أهمية إتقان القارئ للوقف والتنغيم وغيرهم من الظواهر التطريزية في فهم الخطاب القرآني وتقريب معانيه إلى المتلقي.

1- إرهاصات التطريز في التراث العربي

احتفت الثقافة العربية قبل عصر التدوين بالمتلقي احتفاء خاصا، وبحث علماؤها عن الوسائل والآليات التي تساعد على التلقي الأمثل للمعارف والتبليغ الأنجح لها؛ لوعيهم أن المستمعين قوم لدّ وخصمون يحتاج من يُحدثهم إلى أعلى درجات البلاغة في الكلام، وفي إلقاء الكلام أي في تلوين الصوت بما يناسب المعاني ويقوّيها ويضاعف تأثيرها على المستمعين¹.

وقادتهم الرغبة في تحسين العملية التواصلية إلى ابتكار طرائق أدائية تستميل آذان المتلقين وتقرب إليهم المعاني، ولقد نجحت في مهمتها بدرجة تكاد تبلغ ما توصل إليه علم الأصوات الحديث بمختبراته المتطورة وأجهزته الدقيقة وتجاربه العديدة. ومن الطرائق التي اعتنوا بها: فن الإلقاء، والإنشاد والتجويد.

أ- فن الإلقاء والإنشاد:

يعتبر فن الإلقاء من أقدم الطرائق الأدائية التي استعملها العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، ووظفوه بصفة خاصة في خطبهم وخطاباتهم بمختلف أنواعها، تقول زهور حميدي: "وكانوا يتميزون بالخطب الهادفة المؤثرة أيام الحروب والمعارك، فكانت أبرز موضوعات الخطابة الجاهلية هي الفخر والحماة والشجاعة وغيرها من المعاني التي تتصل بالبطولة والدعوة إلى الحرب"².

ويرجع تأثير تلك الخطب إلى مناسباتها لسياق ورودها، وللطريقة التي تُلقى بها؛ لأنه يستحيل أن تلقى الخطب الاحتفالية بنفس النمط الذي تلقى به الخطب السياسية، وما قيل عن هاذين النوعين يُقال عن باقي أنواع الخطب العديدة.

ولقد تنبّه الباحث فاروق سعد للصلة الوثيقة بين فن الإلقاء والتطريز الصوتي، بذهابه إلى أن "فن الإلقاء يجمع بين النطق المتنوع والتعبير بالحركة، والنطق المتنوع ليس إلا الأداء المتعلق بمخارج الحروف وتكليف الصوت حسب المقامات، وبذلك تتضح ألفاظ الكلام ومعانيه"³.

وإلى جانب فن الإلقاء يعد الإنشاد من أهم الطرائق الأدائية التي ابتكرها الشعراء قبل عصر التدوين كذلك، ولما استشعروا أهميته -الإنشاد- في إيصال المعاني إلى المتلقين، وإسهامه البين في جذب انتباههم ولعل ما يؤكد كلامنا هو حرص بعض الشعراء الذين لا يجيدون مهارة الإنشاد إلى انتخاب من ينوب عليهم في تلك المهمة. لا يخفى على ذي الحس ودقائق الكلام أن كيفية إنشاد القصيدة الغزلية تباين كيفية وطريقة إنشاد القصيدة الرثائية، وطريقة إنشاد القصيدة الفخرية تباين طريقة إنشاد القصيدة المدحية.

أ- التجويد

بعد نزول القرآن وتزايد اختلاط العرب بالأعاجم دعت الضرورة إلى الاهتمام بالأداء القرآني؛ خوفا عليه من تغيير معانيه وتبديلها وهو ما اصطلح عليه علماء التجويد بالحن الجلي، أو تغيير قراءته دون المساس بالمعنى وهو المعروف بالحن الخفي.

ووقع الاتفاق على أن القراءة المطلوبة فهي القراءة "التي لا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء على وجه من وجوه القراءات، فنقرأ لكل إمام بما نُقِل عنه، من مدٍّ أو قصر أو همز أو تخفيف همز أو تشديد أو تخفيف أو إمالة أو فتح أو إشباع أو نحو ذلك"4.

والحديث عن الأداء القرآني هو حديث بشكل أو بآخر عمّا اصطلح عليه بالظواهر التطريزية في علم الأصوات الحديث، ومما يؤكد هذا الرأي جملة من التعاريف قدمت له قديماً وحديثاً. من أهمّها اعتبار أحمد خالد شكري التجويد "علم بكيفية أداء قراءة القرآن الكريم من حيث إخراج الحرف من مخرجه، وإعطائه حقه ومستحقه"5. وقيل أيضاً: "التجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، والحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتلطيف النطق به، على حال صيغته وهيئته، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف"6.

2- التوجيه الدلالي للظواهر التطريزية.

اقتنع المحدثون أكثر من غيرهم بأهمية المتلقين في العملية التواصلية، إذ يساهمون في قراءة النص الواحد قراءات عديدة، ويقومون بتأويله وتأويلات كثيرة؛ فخصومهم بعناية خاصة، وبمنزلة رفيعة.

وتكشف الظواهر التطريزية عن وجه من وجوه الاعتراف بمركزية المتلقي في العملية التواصلية، يقول مبارك حنون: "وقد أجمع اللسانيون، عموماً، على أن التطريز يلعب دوراً هاماً في ما يتصل بقدرة المستمع على تأويل قصد المتكلم"7، وإذا كانت غاية المتكلم إفهام المتلقي فإنه يعمل جاهداً على توظيف كلما من شأنه إنجاح عملية التواصل ومن تنعيم وإشارات وغيرهما.

والظواهر التطريزية ظواهر صوتية عديدة8 مصاحبة للكلام، وتعبير أحمد مختار عمر هي عبارة عن "ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة"9. وتوصل الباحثون إلى إسهام الظواهر التطريزية في الإبانة عن المعاني، يقول كمال بشر: "ومعنى هذا كله أن المنطوق لا يكتمل معناه ولا يتم تحديده وتوضيحه إلا إذا جاء مكسواً بكسائه المعين من الظواهر الصوتية الأدائية التي تناسب بناءً ومقامه. كالنبر والتنغيم والفواصل الصوتية أو ما يمكن نعتها بالتلون الموسيقي للكلام"10. ويضيف محمد زبير عباسي ومحمد شبير "فالتنغيم والفواصل الصوتية والوقفات المتناغمة والسكتات المتقاربة والمتباعدة والاستراحات القليلة والكثيرة وأنماط نغمات الصوت ارتفاعاً وانخفاضاً، تمديداً وتخفيفاً والنبر Stress والتوقع accent كلها من أهم العوامل التي تنمط الجمل وتحوّلها إلى دلالات مثبتة ومنغية، استفهامية وإنكارية وتقريرية، تعجبية وعدمها"11.

بيد أن الإسهام الأمثل للظواهر التطريزية في توجيه معنى الكلام المنطوق لا يتم إلا إذا تم مراعاة النطق السليم لكل ظاهرة صوتية، فلا ينبغي مثلاً احترام مواقع النبر وإغفال مواطن الوقف والتنغيم...

2-1 إسهام الوقف والتنغيم في تلقي المعنى القرآني

توصلنا في المبحث السالف إلى أن الظواهر التطريزية تتكامل فيما بينها بهدف تبليغ مراد المتكلم، بيد أن المقام لا يسمح بإيرادها كاملة، فاختارنا التركيز على الوقف والنغم والتنغيم باعتبارهما من أكثر الظواهر التطريزية تأثيراً في المعاني

أ- الوقف وتلقي المعنى القرآني

تنبه علماء العربية بمختلف مشاربهم وتباين أزمانهم؛ قراء ومفسرين، بلاغيين ولغويين، إلى أهمية علم الوقف والابتداء في الإبانة عن المعاني عامة ومعاني القرآن خاصة، فاعتنوا به عناية كبيرة، يقول عبد الكريم عوض صالح: "فظهر الاعتناء بالوقوف، وروعي فيها ما يراعى في تفسير الآيات فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني"12.

والذي يؤكد هذا الكلام وجود سند له في أبحاث علمائنا من خلال نصوص صريحة وواضحة تجل عن الحصر ومن بينها؛ ما أورده علم الدين السخاوي (643هـ) عندما أشار إلى أن "في معرفة الوقف والابتداء الذي دونه العلماء تبين معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده، وبه يتهيأ الغوص على درره وفوائده، فإن كان

هذا بدعة فنعمت البدعة هذه" 13. ويضيف صاحب لطائف الإشارات (923هـ) معززا هذا الرأي، بقوله: "ولا مرية أن بمعرفتهما تظهر معاني التنزيل، وتعرف مقاصده، وتستعد القوة المفكرة للغوص في بحر معانيه، على درر فوائده" 14. وعليه؛ ففهم دقائق التنزيل وكشف إعجازه متوقف على معرفة وإتقان علم الوقف والابتداء، إذ بفضلهم يعلم "الفرق بين المعنيين المختلفين، والقصتين المتناهيتين، والآيتين المتناقضتين، والحكمين المتقاربين، وبين الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفسر، والمحكم والمتشابه، ويُتميز بين الحلال والحرام، وبين ما يقتضي الرحمة والعذاب" 15. ومما لا شك فيه أن مراعاة الوقف الصحيح والابتداء السليم، يحافظ على حسن تبليغ الخطاب الإلهي، ويوجه الوجهة المقصودة. بيد أنه بانتفاء هذا المعطى ينفي المراد والمقصد من الآية القرآنية. يقول الهذلي (465هـ): "كتب الوقف والابتداء التي تعني ببيان مواضع الوقف والابتداء لقارئ القرآن، لكي لا يقع في المحذور، ويصرف دلالات الآيات الكريمة عن غير ما وضعت له" 16. وإلى الأمر نفسه أشار الزركشي (794هـ) في معرض حديثه عن منزلة علم الوقف والابتداء، إذ يقول: "هو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن (...)، وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحترار عن الوقوع في المشكلات" 17.

وتكمن خطورة الوقف في الفهم الخاطي الذي قد يترتب عليه، ومن ثمة "ليس كل ما يتعسف به بعض المعربين أو يتكلفه بعض القراء، أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضي وقفا أو ابتداء ينبغي أن يعتمد الوقف عليه، بل ينبغي تحري المعنى الأتم والوقف الأوجه" 18.

إن العناية بعلم الوقف والابتداء مطلب ملح، وضرورة لا مناص منها لدارس القرآن ومستنبط معانيه، إذ إتقانه يتوصل إلى كنه الخطاب القرآني، وقد كان هذا الوعي متأصلا لدى علمائنا، إذ "اشتراط كثير من أئمة الخلف على المجيز أن لا يجيز أحدا إلا بعد معرفته الوقف والابتداء 19، واعتبروا "من لم يعرف الفرق بين ما وصله الله جل وعز في كتابه وبين ما فصله، لم يحل له أن يتكلم في القطع والائتلاف" 20.

وقسم العلماء الوقف عدة أقسام بناء على التاويلات الممكنة من قبل المتلقي، ومنها: الوقف اللازم وهو الذي لا يستقيم المعنى إلا بالالتزام به، والقبيح وهو الذي يُضَع المعنى عند التقيد به، ويعتبر هذان القسمان من أبرز النماذج الشاهدة على أهمية الوقف في الإبانة عن المعاني. ولبين ذلك سنوضحهما فيما يأتي:

○ الوقف اللازم

ويسمى أيضا بالواجب. وهو في اللغة من الملازمة للشيء والدوام عليه 21. ويراد به في الاصطلاح: "ما لو وصل طرفاه غير المراد" 22؛ وعليه فسلامة المعنى واستقامته في هذا النوع من الوقف لا تحصل بوصل الكلام، بل بمراعاة الوقف واحترامه لاتئاف التعلق بين أجزائه. ومن أمثلته في القرآن:

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ 23.

ومعنى الآية أنه "زَيْنَ للذين كفروا حب الحياة الدنيا العاجلة للذات، فهم ينتغون فيها المكاثرة والمفاخرة، ويطلبون فيها الرياسات والمباهاة، ويستكبرون عن اتباعك يا محمد والإقرار بما جئت به من عندي، تعظما منهم على من صدقك واتبعتك ويسخرون بمن تبعك من أهل الإيمان والتصديق بك، في تركهم المكاثرة والمفاخرة بالدنيا وزينتها... والذين عملوا لي وأقبلوا على طاعتي، ورفضوا لذات الدنيا وشهواتها، اتبعا لك، وطلبا لما عندي، واتقاء منهم بأداء فرائضي وتجنب معاصي فوق الذي كفروا يوم القيامة" 24.

ولكي يفهم المتلقي الآية فهما سليما يلزم الوقف عند كلمة آمنوا والابتداء بكلمة والذين اتقوا، يقول: ﴿مَنْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ، و﴿فَوْقَهُمْ﴾ خبره، ولو وصل صار ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرفا ليسخرون، أو حالا لفاعل ﴿يَسْخَرُونَ﴾، وقبحه ظاهر 25.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ 26.

ومعنى ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ سبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن: «إن يكون»، بكسر الهجمة ورفع النون: أي سبحانه ما يكون له ولد. على أنَّ الكلام جملتان ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بيان لتنزهه عما نسب إليه، يعني أنَّ كل ما فيها خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض²⁷. ولا يخفى على العاقل، الفساد الذي يطال المعنى إن وصلنا بين الجملتين ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ و﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يقول السجاوندي: "﴿ولد﴾ تامة، ولا يجوز وصله بما بعده لأنه لو وصله لصار صفة له، فكان المنفي ولداً موصوفاً بأنه يملك السماوات والأرض، والمراد نفي الولد مطلقاً"²⁸.

○ الوقف القبيح

وهو ضد الجميل، وفي الاصطلاح هو "ما اشتدّ تعلّقه بما قبله لفظاً ومعنى"²⁹. وبتعبير عبد الله بن سالم الشمالي هو "ما يوهّم خلاف المقصود، وذلك لتوقف ما بعده عليه ليتم منه المعنى المراد"³⁰، وخلافاً للوقف اللازم يتوجب وصل الكلام في الوقف القبيح لكي لا يفهم من ذلك الكلام عكس المعنى المراد. ووجه الوقف القبيح كثيرة منها: "الوقف على المنفي الذي يأتي بعده حرف الإيجاب"، و"الوقف على المرفوع دون الرفع" و"الوقف على المضاف دون ما أضيف إليه" و"الوقف على المنعوت دون النعت"، ومن بين نماذجها في القرآن: الوقف على المنفي الذي يأتي بعده حرف الإيجاب:

وبعد هذا النوع من أشد أنواع الوقف القبيح قبحاً لما يترتب عليه من تغيير شنيع للمعنى، يقول الداني: "وأقبح من هذا وأشنع الوقف على المنفي الذي يأتي بعده حرف الإيجاب نحو قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ و﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وشبهه. لو وقف واقف على ما قبل حرف الإيجاب من غير عارض لكان ذنباً عظيماً، لأن المنفي في ذلك كل ما عبد غير الله عز وجل"³¹.

الوقف على مضاف دون تمام الحرف

ولا يقل هذا النوع قبحاً على النوع الأول، لأن المتلقي سيفهم عكس المعنى المراد، "وأقبح من هذا النوع الوقف على قوله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا﴾ [آل عمران: 181] و﴿لقد كفر الذين قالوا﴾ [المائدة: 72 - 73] و﴿قالت اليهود﴾ [المائدة: 64، والتوبة: 30] و﴿قالت النصارى﴾ [التوبة: 30] و﴿فاعبدون. وقالوا﴾ [الأنبياء: 25 - 26] و﴿من إفكهم يقولون﴾ [الصافات: 151]... والابتداء بما بعد ذلك من قوله: ﴿إن الله فقير﴾ [آل عمران: 181] و﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ [المائدة: 72] و﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة: 73] و﴿يد الله مغلولة﴾ [المائدة: 64] و﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: 30] و﴿المسيح ابن الله﴾ [التوبة: 30] و﴿اتخذ الرحمن ولداً﴾ [الأنبياء: 26] و﴿ولد الله﴾ [الصافات: 152]... لأن المعنى يستحيل بفصل ذلك مما قبله"³².

ومن ثمة، فللوقف والابتداء إسهام واضح وجلي في إظهار المعاني بصفة عامة ومعاني القرآن بصفة خاصة، وأي إخلالٍ بأحدهما في كثير من الأحيان أثناء الكلام أو قراءة القرآن يغير المعنى المراد والقصد المطلوب.

ب- النغم وتشكيل المعنى

يؤكد الدارسون المحدثون أن المتلقي للخطاب المنطوق لا يتلقاه على وثيرة واحدة وإنما تتقلب نغماته بين الصعود والهبوط حسب المعاني المراد تبليغها، فالنغمات الصاعدة تدل على عدم تمام المعنى، بينما النغمات الهابطة تشير إلى تمامه واكتماله. وذلك التنويع يسهم في تشكيل التنغيم الفاعل في توجيه معاني المتكلمين، ومن ثمة "تقع النغمة رهينة لنوع القراءة التي تحدد بها الوجهة التنغيمية، وذلك أن لكل قراءة قرآنية قلباً أدائياً ونمطاً تنغيمياً خالصاً"، إذ إن "الهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستهنامية وجملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات وهنّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة. فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة فأوها وعينها ولامها وزاؤها وملحقاتها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض وبعضها يتفق مع النبر وبعضها لا يتفق معه. وبعضها صاعد من مستوى أسفل وبعضها هابط من مستوى أعلى. فالصيغة التنغيمية منحني نغبي خاص بالجملة يُعين على الكشف عن معناها النحوي"³³.

وتنقسم النغمات حسب عبد الرحمان أيوب إلى خمسة أنواع، وهي: النغمة المستوية، والنغمة الهابطة، والنغمة الصاعدة، والنغمة الهابطة الصاعدة، والنغمة الصاعدة الهابطة³⁴.

ج- التنغيم وتلقي المعنى القرآني

التنغيم "نوع من التلوين الصوتي يكسو به المتحدث نطقه للكلمات أو الجمل أو العبارات، فتبدو هابطة النغمة أو عالية أو متوسطة أو طويلة أو قصيرة أو لينة أو خشنة أو رقيقة أو مفخمة"³⁵، ويعتبر من أهم الظواهر التطريزية، لأنه يتشكل عن طريق تتابع جملة من النبرات والوقوف والمفاصل وغيرها، يقول كمال بشر: "التنغيم هو الخاصية الصوتية الجامعة التي تلف المنطوق بأجمعه، وتتخلل عناصره المكونة له، وتكسبه تلوينا موسيقيا معينا حسب مبناه ومعناه"³⁶.

يبد أن صلته بالوقف أشد وأوثق، لأنه "يحدد إطاره وتدرج أنماط نغماته في نهايات الجمل بالفواصل الصوتية، ونعني بها الوقفات والسكنات والاستراحات. فهما (التنغيم والفواصل) متلازمان، وهما معا الأمارات الأساسية الدالة على أنماط التراكيب وكيفيات تكوينها، وبهما أيضا يمكن تصنيف هذه التراكيب إلى أجناسها النحوية"³⁷

ولا يقل التنغيم عن الوقف أهمية من حيث توجيه المعاني، لأن "لكل أسلوب من الأساليب الكلامية طابع تنغمي خاص، ونسق أدائي يتم به معرفة ما إذا كان الكلام إخبارا أم استخبارا واستفسارا، نفيًا، أو نهيا أو تعجبا"³⁸، ولقد أدرك صالح ملا عزيز أهمية التنغيم في توجيه مقاصد المتكلمين، بقوله: "وعلى المتكلم أن يراعي في أثناء الكلام هذه القوالب التنغيمية مثلما يراعي قواعد الإعراب، ولا عدّ كلامه ضربا من اللحن يعجز عن أداء وظيفته الإبلاغية والإفهامية"³⁹.

وإذا كان فهم الخطاب البشري يتوقف على نجاح التنغيم، فإن الخطاب القرآني يستحيل استيعابه دون مراعاة هذا المكون التطريزي، ومن ثمة "إذا كان التنغيم عنصرا ضروريا يتوقف عليه الأداء الصحيح والفهم السليم في اللغة عموما، فإنه في تلاوة القرآن أكثر ضرورة، وحاجة المرتل إليه أشد، لأن في القرآن وجوها من المخاطبات لا تخرج عن كونها تلوينات صوتية تُدرج ضمن التنغيم السليم للنص القرآني"⁴⁰.

ولقد نبه الدارسون على خطورة إغفال التنغيم أثناء ترتيل القرآن أو تجويده لما يترتب عليه من لحن خفي أو جلي، إذ يذهب صاحب جماليات الإشارة النفسية إلى أن "إهمال التنغيم في تلاوة القرآن يؤدي حتما إلى لون من اللحن الخفي الذي يقضي على كثير من القضايا الدلالية والجمالية التي هي في غاية الخطورة، وهذا أمر لا ينتبه إليه إلا من يكون ملما بطريقة الإلقاء الصوتي الجيد، ويمتلك مخزونا من الخبرة بمواضع الوقف والابتداء وتقدير المدات وحدود الإملات"⁴¹.

وسعى علماء علم الأصوات المحدثون إلى البرهنة على أهمية التنغيم في توجيه دلالات القرآن الكريم عامة وتوجيه مواطن الاستفهام خاصة، ومن النماذج الشاهدة على ذلك:

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾⁴²

إن قراءة هذه الآية قراءة صحيحة تقتضي فهم أن (هل) للتقرير، لأنها ليست لطلب فهم شيء غير معروف، يقول الطاهر بن عاشور: "استفهام تقريري... وهو هنا موجّه إلى غير معين ومُستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين"⁴³، ويؤكد كمال بشر دور التنغيم في تبليغ معناها، بقوله: "فقد قرر المفسرون أن 'هل' هنا معناها 'قد'... يقول هؤلاء: إن 'هل' للاستفهام التقريري، أي أن الجملة تقريرية affirmative وليست استفهامية... وفيصل الأمر في ذلك في رأينا إنما هو التنغيم والموسيقى"⁴⁴.

وإذا كانت طريقة تنغيم الجملة السالفة هي المؤشر الذي يبين للمتلقى أن الجملة القرآنية تقريرية رغم وجود حرف الاستفهام "هل"، فإن بعض الجمل القرآنية أيضا يتكفل التنغيم بالكشف عن استفهاميتها رغم خلوها من محرفي أو أدوات الاستفهام، ومن أمثلتها:

المثال الأول، قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُزَوِّجَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁴⁵
 المثال الثاني، قوله سبحانه: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِزِ الْعَقَّارِ﴾⁴⁶
 وتقدير الآية الأولى أيحلفون على إنكار وقوع ذلك والتعجب منه والتوبيخ عليه، بينما تقدير الآية الثانية أدعوني إلى الكفر⁴⁷

النموذج الثاني، قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾⁴⁸

إن استيعاب مضمون الآية وفهمه من قبل المتلقي لن يتحقق إلا براءة الآيتين بنغمتين متباينتين؛ الأولى بنغمة الاستفهام الصاعدة، والثانية بنغمة التقرير النازلة، ومن ثمة "فلا شك أن تنغيم جملة ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ بنغمة الاستفهام، وجملة ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ بنغمة التقرير سيقرب معنى الآيات إلى الأذهان، ويكشف عن مضمونها"⁴⁹.

وعليه، يتضح من النماذج المقدمة بما لا يدع مجالاً للشك أن للتنغيم دور بارز وإسهام فعال في الكشف عن دلالات الآيات القرآنية، وعدم اتقانه من قبل القارئ للقرآن قد المتلقي يفهم بعض الآيات فهماً خاطئاً.

خاتمة

وختاماً، تبين من خلال هذا البحث الدور المهم الذي تقوم به الظواهر التطريزية عامة والوقف والنغم والتنغيم خاصة في توجيه دلالات بعض الآيات القرآنية، إذ يستحيل على المتلقي للخطاب القرآني فهمه والتوصل إلى مقاصده إذا كان القارئ لا يتقن علومه كعلم الوقف والابتداء، ولا يجيد طرق الأداء ومنفتح على مباحث علم الأصوات عامة والظواهر التطريزية خاصة.

قائمة الإحالات

- 1- فن الإلقاء: 22
- 2- التشكيل اللغوي ومهارات الإلقاء للخبر التلفزيوني: 99، نقلاً عن فن الإلقاء في ضوء عملية التواصل: 17
- 3- فن الإلقاء العربي (الخطابي والقضائي والتمثيلي): 17 نقلاً عن فن الإلقاء في عملية التواصل: 15
- 4- التمهيد في علم التجويد: 57
- 5- المنير في أحكام التجويد: 12
- 6 - التمهيد في علم التجويد: 59
- 7- في التنظيم الإيقاعي للغة العربية نموذج الوقف: 15
- 8- من أهم الظواهر التطريزية نسج: النبر، والوقف، ودرجة الصوت، والتنغيم وغيرها.
- 9- دراسة الصوت اللغوي: 219
- 10- علم الأصوات: 623.
- 11- السياق التنغمي ودوره في تحديد دلالات الأصوات المكتوبة: 125
- 12- الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم: 67
- 13 جمال القراء وكمال الإلقاء: 553
- 14 - لطائف الإشارات: 249
- 15 - كتاب الوقف والابتداء في كتاب الله: 374

16. نفسه: 346
- 17 - البرهان في علوم القرآن، 214/1
- 18 - النشر في القراءات العشر، 1/ 182
- 19 - النشر في القراءات العشر: 1/ 177 - 178
- 20 - القطع والانتناف: 21
- 21 لسان العرب: 4028.
- 22 الإيقان في علوم القرآن: 234/1
- 23 - سورة البقرة: 212
- 24- تفسير الطبري جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن: 4/ 273 - 274.
- 25 - علل الوقوف: 292.
- 26- سورة آل عمران: 171
- 27 - الكشف: 1/ 607
- 28 - منار الهدى: 237
- 29- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: 34
- 30- وقوف القرآن وعلاقتها بالمعنى والتركيب: 17
- 31- المكتفى في الوقف والابتدا: 27
- 32- المكتفى في الوقف والابتدا: 25 - 26
- 33- اللغة العربية معناها ومبناها: 226
- 34- أصوات اللغة: 153 - 154 - 155
- 35- أثر الوقف على الدلالة التركيبية: 16 - 17
- 36 علم الأصوات، كمال بشر: 531
- 37- نفسه: 532
- 38 تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني: 166
- 39- جمالية الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: 353
- 40 - نفسه: 356
- 41- نفسه: 356
- 42 سورة الإنسان: 1
- 43- التحرير والتنوير: 29/ 371.
- 44- علم الأصوات كمال بشر: 612
- 45- سورة التوبة: 62
- 46 سورة غافر: 41 - 42
- 47- النحو والسياق الصوتي، أحمد كشك، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م، ص: 111

48- سورة يوسف: 74 - 75

49- علم الدلالة: 13

المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم رواية حفص
- ✓ الإيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2428 هـ - 2007 م.
- ✓ أثر الوقف على الدلالة التركيبية: محمد يوسف حبص، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ط، 1414 هـ - 1993 م.
- ✓ دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1418 هـ - 1997 م.
- ✓ السياق التنغيبي ودوره في تحديد دلالات الأصوات المكتوبة: محمد زبير عباسي ومحمد شبير، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، العدد الحادي والعشرون، 2014 م.
- ✓ أصوات اللغة: عبد الرحمن أيوب، مطبعة الكيلاني، ط2، 1968 م.
- ✓ البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1427 هـ - 2006 م.
- ✓ تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة سورة التوبة أنموذجاً: فخرية غريب قادر، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 1432 هـ - 2011 م.
- ✓ التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984 م.
- ✓ تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري، تح. محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، د.ت.
- ✓ التمهيد في علم التجويد: ابن الجزري، تح. غانم قدوري حمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ، 2001 م.
- ✓ جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، تح. علي حسين البواب، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1408 هـ - 1987 م.
- ✓ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: صلاح ملا عزيز، دار الزمان - دمشق - سورية، ط1، 2010 م.
- ✓ علل الوقوف: السجاوندي، تح. محمد بن عبد الله بن محمد العبيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1427 هـ - 2006 م.
- ✓ علم الدلالة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998 م.
- ✓ علم الأصوات: كمال بشر، دار غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ✓ فن الإلقاء: عبد الوارث عسر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، د.ت.
- ✓ فن الإلقاء في ضوء عملية التواصل: مقارنة لسانية للخطب المنبرية في الجزائر: رسالة للماجستير، من إعداد بن بريك حراق، إشراف أحمد عزوز، جامعة وهران، 2011 - 2012 م / 1432 - 1433 هـ.
- ✓ في التنظيم الإيقاعي للغة العربية نموذج الوقف: مبارك حنون، ط1، 1431 هـ - 2010 م.
- ✓ القطع والانتفاف: النحاس، عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1413 هـ - 1992 م.
- ✓ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، اعتنى به السيد محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط1، 2012 م.
- ✓ لسان العرب: لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ✓ لطائف الإشارات لفنون القراءات: شهاب الدين القسطلاني، تح. عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، د.ط، 1392 هـ - 1972 م.
- ✓ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.

- ✓ المكثف في الوقف والابتداء: أبو عمرو الداني، نج جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طائفا، د.ط، 1427هـ - 2006م.
- ✓ منار الهدى في بيان الوقف والابتداء: الأشموني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ - 2002م.
- ✓ المنير في أحكام التجويد: أحمد خالد شكري وآخرون، ط18، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، 2001م.
- ✓ النحو والسياق الصوتي: أحمد كشك، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م.
- ✓ النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، تقديم محمد الضباع، خرج آياته زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
- ✓ الوقف والابتداء في كتاب الله: لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي، دراسة وتحقيق، عامر أمين الددو، مجلة الشريعة والقانون، العدد الرابع والثلاثون، ربيع الثاني 1429هـ - أبريل 2008م.
- ✓ الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم: عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السلام، القاهرة، مصر، ط2، 2008م.
- ✓ وقوف القرآن وعلاقتها بالمعنى والتركيب من خلال كتاب "إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله": رسالة دكتوراه من إعداد عبد الله بن سالم الشمالي، إشراف عبد الله بن ناصر القرني، جامعة أم القرى، السعودية، الموسم الجامعي: 1425هـ.